نشيجٌ مكتوم

ناطق خلوصي ❖

بدا كأنّ هاجسًا غامضًا استفزّه وهتف به أنِ استيقظ، فاستيقظ في تلك اللحظة لم تكن بواكيرُ شمس الصباح قد أفصحتْ عن نفسها تمامًا بعد. كان أول ما فعله، أنْ مدّ أصابعَ يدٍ قلقة، وأزاح الغطاء عن نصف جسدها العلوي، فاطمأنّ إلى أنّها ما تزال إلى جوارِه تأمّل وجهَها ببصر مرتعش، وخُيّل إليه أنّه يلمح ظلال أسًى خفيّ على وجهها الساكن، أو لعلّه رأى ظلال قلقه منعكسةً عليه، فأعاد الغطاءَ إلى سابق وضعه.

لم تكن المرة الأولى التي يفعل فيها ذلك؛ ففي الهزيع الأخير من الليل داهمه حلمٌ مرعبٌ رأى نفسَه فيه يسير معها يدًا بيد في «مستنقع الموت» الذي يعجّ بالجِيَفِ البشرية. لكنّ ذلك المكان كان يبدو هادئًا، آمنًا: لا هدير قذائف مورتر أو زخّات رصاص، لا دخان حرائق تشتعل أو شواظ لحم بشري يحترق، ولا عويل سيارات إسعاف! أدهشه أن يرى حافلةً صغيرةً تأتي من مكانٍ لامرئيّ وتصطفّ إلى جوار رصيفٍ مهجور، قريبًا منهما، وما يزال يشدّ قبضتَه على معصمها كأنّه يخشى أن تضيع منه. سكن هديرُ محرّك الحافلة، فحرّر يدَها واندفع إلى الداخل من دون أن يزاحمه أحد، آملاً في أن يحجزَ لها مكانًا إلى جانبه، مدفوعًا بالرغبة في أن يفرّ بها من ذلك المكان حين التفت لينادِيها لم يجدها. فترك مكانَه ونزل على عجل كأنّ مسّاً من الذعر أصابه. صرخ مناديًا باسمها فردّد الفراغُ صدى صوته المتهدِّج بل إنّ الحافلة نفسها اختفت تمامًا ولم يكن هناك من أحد حوله. ووسط تشبّثه المحموم بأيّ خيطِ أملٍ تأتّى له، أو أوهم نفسَه بذلك، أن يُمسك بطرفٍ مثل هذا الخيط، فهبّ من نومه، وقلبُه يضرب عظامَ صدره بعنفٍ. جلس ومدّ يدًا متوترةً وسحب الغطاء عن نصف جسدها العلوي. وتلك اللحظة، سكَنَ وجيبُ قلبه

مكث ساكنًا هنيهةً، وما لبث أن نهض وخطا خطوتين توقّف عند النافذة، وبحركةِ أصابعَ حذرةٍ سَحَبَ طرفَ الستارة قليلاً، تسلّل شريطٌ ضيقٌ من ضوءٍ شاحبٍ خجول. نثر شظايا بصره، فتساقطتْ على خضرة الأشجار الداكنة الساكنة. أعاد الستارةَ إلى ما كانت عليه وعاد إلى السرير. لم يكن راغبًا في معاودة النوم، ربما لأنه كان يريد أن يقتنص لحظاتِ سعادةٍ قد لا تتكرر في هذه الأيام تأمّلَ وجهَها الذي كان ما يزال مستسلمًا لجبروت النوم، فرآه هذه المرة هادئًا، آسرًا، وكأنه يدعوه إليه، وخُيّل إليه أنه يرى ظلالَ ابتسامة صغيرة على طرفي شفتيْها أتراها تحلم الآن؟

ساورتْه رغبةٌ مباغتةٌ في أن يوقظها. نعم، إنّ ثمة لحظات سعادة لا بدّ من اقتناصها قبل أن تهرب. مدّ أصابع يده بحذر، وصارت أناملُه تمسح وجهها وتمرّ على شفتيها برفق فتحتْ عينين مغبشتين بالنعاس، نشرتْ على وجهها ابتسامةً آسرةً، وهمستْ بلسانٍ عذب.

ـ صباح الخير!

ردّ على تحيتها بانحناءة مترددة على وجهها حتى كادت شفتاه تلامسان شفتيها. قالت وقد أزاحت الغطاءَ عن جسدها:

ـ ما الذي أيقظك مبكّرًا، وهذا اليومُ يومُ عطلة؟!

ردّ معتذرًا:

ـ لا أدري. أنا آسف لأنّني سرقتُكِ من لذيذِ نومك

قالت هامسةً:

ـ لماذا تقول هذا؟ ليس في الأمر ما يدعو إلى الأسف كنتُ سأستيقظ في كلّ الأحوال.

تشبّث بيدها.

ـ لكأنّكَ رأيتَ حلمًا!

❖ ـ كاتب من سورية

زفر بعمق:

ـ بل تستطيعين أن تقولي إنَّه كان كابوسًا!

ارتجفتْ شفتاها وغامت عيناها قليلاً

ـ وماذا رأيتَ؟!

لم يكن قلبه يطاوعه لأن يروي لها الحلم، ربما بفعل خشيته من أن يتحول إلى حقيقة. لكنها كانت ترنو إليه ببصر مترقّب بدأ يروي لها، فشعرتْ بغصّة حزن قالت، وكأنّها أحست بالقلق الذي ينهشه في الداخل:

ـ اطمئنّ. هذا يعني أنّنا سنبقى معًا إلى ما شاء اللّه. إنّ بعض الأحلام تنبئ بخلاف ما يراه المرء.

ازداد وجهُه اقترابًا من وجهها قبّل عينيها أولاً، وما لبثتْ شفتاه أن تحوّلتا إلى خدَّيْها لتنطبقا أخيرًا على شفتيها. رأت ذلك الوميضَ الغامضَ يلتمع في عينيه، فوضعتْ ذراعَها حول عنقه.

حين وقع بصرُها على الأخدود الضيق الصغير أسفلَ سرّته، لامستْه بأنامل رقيقة وهي تبتسم: شقٌّ هلاليّ ضيّق خلّفه التئامُ جرح تداخل جراحي أُجري له قبل سنوات كما سبق أن قال لها. أمسكتْ يده ووضعتُها على بطنها وقد انحسر قميصُها الداخلي عنها.

ـ احذرْ! قد يرفس اللعينُ يدَكَ!

أحسّ برعشةٍ تسري في جسده، تبدأ من بؤرة الإحساس فيه وتنتشر في كلّ خلية من خلاياه وحرص على أن لا يضغط على بطنها مخافةَ أن تعاودها حالةُ الإجهاض أغمضتْ عينيها، وخدرٌ لذيذٌ يتغلغل في جسدها وما لبثتْ أن صارت تلهث، وقد أَخذتْ أوصالُها تتراخى، واستسلمتْ لسكونٍ لذيذ، والشمسُ بدأتْ تتوهج وراء ستارة النافذة

غاب في الحمّام لبعض الوقت، ورأته، بعد أن عاد، يضع معطفه على كتفيه قالت بصوتٍ ناعم.

ـ إلى أين؟

ـ أذهب لآتي بالفطور

ـ ولماذا تُتْعب نفسك؟ لدينا ما يمكننا أن نتناوله.

ردّ ممازحًا:

ـ أريد أن آتي بما يعوِّض عن الطاقة التي خسرناها.

قالت، وشيء من قلقٍ خفيّ يساورها

ـ لا تذهبْ بعيدًا أرجوك. ابحثْ عمّا تريد في الدكاكين القريبة

لاحقه صوتُها وهو يتجه صوب الباب:

ـ هل أخذتَ هاتفكَ المحمول معك؟

استدار وأومأ برأسه إيجابًا

❖ ❖ ❖

لماذا تأخّر؟ حقّاً، لماذا تأخر؟ ها إنّ نصفَ ساعة قد مرّ، بل ساعة. أيكون قد ركب صهوةَ عنادِه وذهب إلى السوق البعيدة؟ ربما. لكنَّني لستُ مطمئنة. لماذا لم يتصل بي؟ لأتصلْ به إذن ضغطتُ على زرّ هاتفي المحمول الهاتف أخرس. كررتُ الضغطَ على أزرار الهاتف، لا ردّ. تمنَّيتُ أن يكون قد نسي أن يفتح هاتفه كما اعتاد أن يفعل كلّ ليلة، وبدت لي أمنيتي محضَ قشّة في تيار جارف. غادرتُ الغرفة وصرتُ أتنقّل من مكان إلى آخر، منتظرةً أن يرنّ هاتفي وأسمعَ صوته. لكنّ صوته ظلّ غائبًا في بئر المجهول. ما الذي يحدث ياَ إلهي؟ لأخرجْ وأتقصَّ الأمر

خرجتُ حاسرةَ الرأس، مع أنَّ خروج امرأة مثلي حاسرةَ الرأس يدخل في باب المغامرة غير المحسوبة النتائج في هذه الأيام. الشارع يكاد يكون خاليًا هذا يوم عطلة. آسأل مَنْ عنه؟ كثيرون يعرفونه ولكنَّني لا أجد أحدًا منهم هذه الساعة. هل أطرق أبوابَهم وأسألهم عنه؟ سقط شعاعُ بصري الحائر على بصيص أمل، وجدتُه في وجه الكهل الطيب وهو يقف في دكّانه. غير أنّ ذلك البصيص سرعان ما تلاشى «لم أره يا ابنتي.» لماذا تلاشى هذا البصيص؟ لكنه لم يتلاشَ تمامًا، فها إنَّني أراه من جديد متوهِّجًا في عيني الفتى القادم نحوي «نعم رأيتُه!» سبقني صوتُ قلقي «أين ومتى وكيف؟» «هناك،» وأشار بيده في اتجاه اليمين «ومتى كان ذلك؟» «قبل ساعة أو نحو ساعة.» «ولكنّ الحاج يقول إنَّه لم يره!» «هذا صحيح فقد كان ما يزال في البيت وكنتُ أنا الذي يقف في الدكان آنذاك » «وبعد؟!» «لقد ألقى عليّ تحيتَه مصحوبةً بواحدة من ابتساماته الآسرة، ثم رأيتُه يبتعد، وما لبثتُ أن رأيتُ سيارةً حديثةً ذاتَ نوافذ مظلّلة تقف إلى جواره ويهبط منها رجل بدا أنيقًا، غير أنّني لم أتبيّنْ ملامحَه. رأيته يمدّ له يدَه ويصافحه ثم يفتح له باب السيارة »

لغزٌ محيِّرٌ والله! سيارة بنوافذ مظلّلة ورجلٌ أنيق يصافحه ويفتح له بابَ السيارة؟ مَنْ هذا الرجل؟ أيكون أحدَ قدامى معارفه، وقد صار مسؤولاً كبيرًا، صادف مروره من هنا في تلك الساعة وأراد أن يلتقي به ويستذكرا أيامًا مضت؟ لماذا لم يتصل بي إذن؟ لا شيء يطفئ نار القلق المشتعلة في أحشائي أنا وحدي ولا أدري ما أفعل. لا أجد من يخفِّف عنِّي وقعَ غيابه المفاجئ بضع سنوات ونحن معًا. لم نفترقْ يومًا ولا غاب عني لسبب من الأسباب. لا مناص من أن أخبر أهله، وأهلُه في طرفٍ قصيّ من المدينة ضاحية ملتهبة بنيران الاحتراب المجنون لا فائدة ترتجى من وجودي هنا. لأعد إلى البيت إذن

عدتُ على قدمين لا تقويان على حملي. تمنيتُ على اللّه أن لا يكون خطُّ الهاتف الأرضي مقطوعًا، وكان اللّهُ إلى جانبي فما إن انتهيتُ من إدارة رقم هاتف أهله حتى تهدَّج رنينُ الجرس في الطرف المقابل وجاءني صوتُ أمه تسبقه لهفتُها وحين بلغها صوتي تعالى عويلُها عويل مفجوع شعرتُ كأنّه يتسلّل إلى قلبي فيلسعه بشواظ من نار وما لبثتُ أن سمعتُ سمّاعة الهاتف تَسْقط التقطتْ أذني لغطًا مرتبكًا، ثم تناهى صوتُ أبيه ملهوفًا. «من الذي يتكلم؟» «أنا يا عمي.» وإذ تعرَّف على صوتي، بدا لي أنّه تنبّأ بهول الفجيعة. تهدّج صوتُه. «ما الذي حدث يا ابنتي؟» «ابنُكَ يا عمي. خرج صباحًا ليأتي بالفطور ولم يعد حتى الآن!» خُيِّل إليّ أنه يوشك أن ينفجر بالبكاء، لكنّه تمالك نفسه، ربما إشفاقًا عليّ ارتعشتْ نبراتُ صوته. «لا تيأسي من رحمة اللّه يا ابنتي.» «ونِعمَ باللّه يا عمي. ولكنني لا أدري ما أفعل وأنا وحدي كما تَعْلم.» زفر بعمق «وأنا أيضًا لا أدري ما أفعل يا ابنتي أنا وحدي مع أمه الغائبة عن الوعي الآن أما أخوه فقد كنا هرّبناه إلى مكان آمن. أنتِ لا تدرين بما يجري هنا. الحيّ محاصر وقد قطعوا الماءَ والكهرباءَ عنّا ونحن محبوسون في بيوتنا لا أحد منا يجرؤ على أن يمدّ رأسَه من فرجة الباب: فالقنّاصون بالمرصاد. استعيني بأحدٍ من أهلك، وليكن اللّهُ في عونك.»

أهلي؟ نعم أهلي ولكنْ مَنْ منهم يَقْدر على مدّ يد العون لي في هذا الزمن الوغد؟ أبي الذي استبدّت به الشيخوخةُ؟ أمْ إخوتي الذين تشتّتوا في المنافي القريبة والبعيدة؟ أمْ أخواتي اللاتي يلذن ببيوتهنّ تحت أجنحة أزواجهنّ؟ لا أحد غير أمي، إذن أمي وحدها هي التي تستطيع أن تقف إلى جانبي في محنتي هذه لأتصل بها إذن.

جالسة، والساعات تمرّ ثقيلةً، وسمعي موزّع بين انتظار التقاط صوت حركة دوران المفتاح في قفل الباب وبين انتظار التقاط رنين الهاتف، أُرهف السمع لأيّة نأمة. وها إنّ الليل يدنو، فتُظْلم روحي قبل أن يُظلم ما حولي أنهض وأُشعل الشموع. شمعةً في ممرّ المدخل

الرئيس، شمعة في المطبخ، شمعةً في غرفة النوم. شموع في كلّ مكان لعلّها تضيء له الطريقَ وهو يعود حين تسرقني سِنَةٌ من نوم.. شموع قد تبدِّد عتمةَ المكان وعتمةَ روحي معًا. وأمي تنظر إليّ بعينين حزينتين وهي تستلقي على أريكة قريبة ربما تلعنني اللحظة لأنّني اخترتُه وأصررتُ على اختياري بعنادٍ غير أنّها لم تشأ أن تثير مواجعَ مضافةً في روحي الآن. تنظر إليّ تارةً، وتعلو حشرجةُ زفيرها تارةً، وأنا ألوب. جسدي ساكنٌ على مقعدٍ قريبٍ من الباب، لكنّ روحي لا تستقرّ في مكان، والظلام بدأ يهمي في الخارج وفي الداخل أيضًا، ولا بارقة أمل تضيئه حتى الآن.

نهضتُ بتثاقل واتّجهتُ صوب غرفة نومنا. لم تطاوعْني نفسي لأن أستلقي على السرير. وكيف أستلقي على فراش وثير وهو قد لا يجد ما يستلقي عليه؟ أراني خيالٌ متعبٌ إيّاه مستلقيًا على أرض عارية، ملتحفًا معطفَه. وتمادى هذا الخيال بأن أراني خيطَ دمٍ يتدفق ينبوعًا من مكانٍ في جسده أبعدتُ هذا الخيال عنّي. نهضتُ وجئتُ بألبوم صورنا. أريده حاضرًا معي دائمًا هذه صورتنا في أيام تعرُّفنا الأولى.. صورتنا ونحن في سفرة . صورتنا في هذا المكان.. في ذلك المكان.. صور تستفزّ ذاكرتي الآن أشعر كأنّني أراه إلى جانبي، أشمّ رائحته، أُحسّ بدفء أنفاسه، كأنّ جسده يجاور جسدي، يحتكّ به، يزداد التصاقُ الجسدين ويلتحمان. أسمع صوته يحدِّثني:

«كانت طفولتي قاسية في صباي عملتُ أجيرًا في مقهى، عتّالاً، بائعَ صحف متنقلاً. وما إنْ كبرتُ قليلاً حتى صرتُ أقضي أيام العطل الصيفية في مساطر عمّال البناء كان عليّ أن أعمل لأعين أُسرتي وهي تقاوم غائلةَ الجوع. أبي كان مرميّاً في جبٍّ صحراوي ناءٍ. قالت أمي، وهي تردّ على سؤالي عمّا جناه: «إنّه سياسي يا ولدي» ولم أكن أفهم آنذاك معنى أن يكون سياسيّاً فيُرمى في جبّ صحراوي الآن أدرك معنى أن يكون المرءُ سياسيّاً يؤْمن بقضيةٍ ما ويناضل من أجلها. كانت أمي تأخذني في زياراتها المتباعدة له يحملنا القطارُ ساعاتٍ وهو يدبّ متثاقلاً حتى يحطّ بنا في محطة صحراوية، ثم ينقلنا باصٌ خشبيّ عبر طريقٍ موحش، لا رائحة للحياة من حوله. لا شجرة، لا نهر، ولا ساقية. لا شيء غير كثبان الرمل. لكنّنا قد نرى بيوتَ الشَعر البدوية تتناثر في أماكن متباعدة. قال لي في إحدى زياراتنا: «أريدكَ أن تَكْبر على عجل لتكون رجلاً وتُكْمل الطريقَ الذي اخترته». ووعدتُه بذلك »

يتسلّل صوتُه إلى أذني كما لو أنّه يجلس إلى جواري. أمدّ يدي لأَشبك أصابعَها بأصابع يده، لكنّها تنزلق في فراغ أطوي ألبومَ الصور وأحتفظ به في مكان قريب من قلبي ولا أدري كيف سرقني النومُ وأنا أصيخ السمعَ إلى قعقعة سرفات الدبابات وهي تمرّ في الشارع القريب، والى هدير طائرات الأباشي وهي تنتهك حرمةَ السماء

❖ ❖ ❖

سبعة أيام، نهاراتُها أكثرُ سوادًا من لياليها، وهي في حالةِ بحثٍ دائبٍ عنه. من هذا المستشفى إلى ذاك، ومن مركز شرطة إلى آخر تتوقّف عند نقاط التفتيش، ووراء الحواجز الكونكريتية، وفي زحام الشوارع التي لا يتمّ اجتيازُها بالسيارة إلاّ بشق الأنفس. لا أحد يعرف عنه شيئًا. لكأنّ يدًا خفيةً تكمّم الأفواه غير أنّ همسة قريبة من الأذن تجفلها. «ابحثي عنه في المشرحة!» ما الذي يقوله هذا الرجل؟! أيُّ فأل مشؤوم هذا الذي نطق به؟ تكاد تلطم وجهها وتصرخ، لكنّها تتمالك نفسَها لا يليق بها أن تفعل ذلك في مثل هذا المكان غير أنّه لا مناص من أن تذهب إلى هناك؛ فكلُّ الطرق أصبحتْ تؤدي إلى المشرحة في هذه الأيام لتذهبْ إذن. مَن الذي سيذهب معها؟ أمها؟ نعم، أمُّها لا أحد غيرها وقد انقطعتْ أخبارُ أهله مع انقطاع حرارة خطوط الهواتف الأرضية لا بدّ من أن تُقْنعها توافق، ولكنْ على مضض، وتسير خلفها بخطواتٍ أتعبها الزمن. تلتفت إليها بين آونة وأخرى كأنّها تستعجلها، والسياراتُ تمرق على عجل كأنها تهرب من قوةٍ غامضةٍ تريد الإيقاعَ بها

ليس الوصول إلى المشرحة يسيرًا. إنّه ينطوي على نوع من المخاطرة، وهاهما تصلان بعد لأي. تقف منقبضةَ القلب وقد شحب وجهُها وبدأتْ تشعر بنوبة دوار. تنفذ إلى أنفها رائحةٌ غريبةٌ تبعث على الغثيان. صفٌّ من سيارات تتراصف حذوَ الجدار المقابل، تَرْقدُ على سطوحها توابيتُ خشبيةٌ فارغةٌ في انتظار المحظوظين الذين يتمّ التعرُّفُ إلى جثثهم. ماذا ستفعل لو وجدتُه هنا؟

تشقّ طريقَها عبر الناس المتجمهرين، تاركةً أمَّها تلوذ بجدار قريب. يُفْزعها منظرُ الجثث المكدّسة في الممرات بعد أن ضاقت الثلاّجات بمن فيها. عليها أن تدخل غرفةً إلى يمين المدخل، والرائحةُ المقزّزةُ تتصاعد كلّما تقدّمتْ خطوة. تلقي تحيتَها على الرجل الذي يكمّم أنفَه بقناعٍ أبيض. تسمع وهي تهمّ بدخول المشرحة مَنْ يهمس. «هل تمتلك الجرأةَ لأن تفعل ذلك؟»

يَفتح موظّفُ المشرحة سجلاً ويمرِّر بصرَه على قوائم الأسماء ويقلّب الصفحات. يهمس لها: «إنّها أسماءُ مَنْ نعثر في جيوبهم على ما يدلّ على شخصياتهم. ليس هو بينهم، وليس عليكِ إلاّ أن تمرّي عليهم واحدًا واحدًا في الممرّات قبل أن تذهبي إلى الثلاّجات. ولكنْ هل تقدرين أن تقومي بذلك؟» «أقدر.» «حسنًا إذن، ضعي هذا القناعَ على أنفك » تتأمّل جدران الغرفة الصغيرة، ووسط عتمة المكان تنتبه إلى ما يستفزّ فيها مكامنَ الألم، وتَعْجب من نفسها كيف واتتها هذه الجرأةُ المضافةُ في أن تكون هنا وحدها مع هذا الرجل الغريب في هذا الجو الجنائزي، وقد ساورها إحساسٌ بالهدوء الداخلي. يخيَّل إليها أنها تسمع صوتًا غامضًا. ينتبه الرجل إلى ملامح دهشتها فيتساءل بهزّة من رأسه. تقول «كأنني أسمع نشيجًا مكتومًا!» ترى ظلالَ ابتسامة صغيرة تموت على أطراف عينيه:

ـ أنتِ على حقّ.. بل إنَّ أصواتًا غريبةً تصدر في الليل، وكأنّهم ينهضون من رقادهم ويتحدّثون، فيثيرون فزعَ حرّاس النوبة الليلية. هؤلاء الحراس يروون قصصًا عجيبةً عمّا يرونه أو يسمعونه!

عليها الآن أن تتفحّص الجثث المتراكمة على جانبي الممرّ قبل أن تصل إلى الجثث المحظوظة التي وجدتْ لها مكانًا باردًا في الثلاّجات الكبيرة. ولكنْ كيف ستتعرّف إليه إذا كان موجودًا هنا؟ أجسادٌ بلا رؤوس، رؤوسٌ بجماجم مهشّمة أو عيون مفقوءة، رؤوسٌ تتدلّى من أجساد لا يربطها بها سوى وشالة رقاب تعرَّضتْ للنحر، وجوهٌ مشوّهة... وها هي تواصل بحثَها ووجيبُ قلبها يتصاعد. خيَّل إليها أنّها سوف تحتاج إلى أيام وأيام لكي تتفحّص الجثث واحدةً واحدة. تدعو ربَّها أن يَفْتح لها بابًا للفَرَج. هل ذاك هو سروالُ منامته ذاتِ الخطوط الزرق؟ والرجل يلاحقها ببصر مترقّب، وربما متعاطفٍ أيضًا. تقترب أكثر وتتوقف عند جثة محظوظة لأنّها وجدتْ لها مكانًا في الجزء الأعلى من ركام الجثث. تحاول أن تتعرّف إلى الوجه، لكنّ ملامحه تبدو ضائعة تمامًا. كأنّ هاجسًا خفيّاً يوحي لها أنّه هو. تقول للرجل الواقف قريبًا منها: «أرجوك. اتركني وحدي قليلاً». ينسحب من دون أن يدري ما تنوي القيامَ به. تمدّ يدًا مضطربة وتُنزل سروالَ المنامة وسروالَه الداخلي، وقد تيبسّ عليهما الدمُ، ويتجمّد بصرُها وهو يقع على الشقّ الهلالي الضيق أسفلَ السرّة. إنّه هو إذن. تَشْعر بدوار وتكاد تنكفئ على وجهها، لكنّها تتمالك نفسَها حين تحسّ كأنّ يدًا تمسك يدها وتضغط عليها. تقترب برأسها من الرأس المدمّى، وتحار من أين تقبّل الوجه. لا تستطيع أن تكبح جماحَ الرغبة في تقبيله. لتكن قبلةً أخيرة، قبلةَ الوداع يا إلهي. تلامس شفتاها طبقةَ الدم المتخثّر المتيبّس على بقايا الوجه، ويخيَّل إليها أنّه يريد أن يهمس لها بشيء. لعلّه يريد أن يوصيها ببقيته التي ائتمن رحمَها عليه. لا تدري كيف انفلتتْ «لن يذهب دمُكُم هدرًا» مهموسةً من بين شفتيها. تحسّ كأنّ الدموع تتحجّر في عينيها، فتعجب لذلك. يستفزّها، وهي تنحني عليه، صوتُ الرجل قادمًا من مكان قريب: «هل عثرتِ عليه؟ مبروك إذن!» لا تدري أتضحك أمْ تبكي. الرجل يبارك لها، فهي محظوظة إذن! لا بد من أن تفعل شيئًا. تنتزع نفسَها من المكان على مضض، تسير صوب الباب الرئيس وهي تترنّح، فتساورها الخشيةُ من أن يتهاوى جسدُها بين الجثث. لا تريد أن تتخاذل أو تضعفَ أمامه، وما يزال النشيجُ يتردّد ولكنّه ليس مكتومًا هذه المرة. يخيَّل إليها أنّه يستحيل إلى نشيد صادح. تشعر وهي تسير أنّ كلّ مشاعر الألم والحزن والمرارة تتجمّع في داخلها وتبدأ بالصعود إلى حنجرتها. وما إنْ تتنفّس هواءَ الشارع، وقد استبدّ بها الدوارُ، حتى تنطلق صرخةُ «لا» مدوّية، قبل أن يتهاوى جسدُها ويرتطم بالأرض.

سورية